بسم الله الرحمن الرحيم

نحمدك اللهم يامن خفيتَ عن الأبصار بقديم ذاتك ، وتجلّيت للبصائر بجليل صفاتك * كما نحمدك على أن أقمت لنا من دلائل توحيدك حُجَجاً بيّنات ، ونصبتَ لنا من باهر تدبيرك في خلقك آياتٍ محكمات * ونصلّي ونسلم على سيدنا محمد القائل : « إنّما بُعثتُ لأُتمّمَ مَكارمَ الأخلاق » ، وعلى آله وأصحابه الذين أُوتوا من مَعادن الشيم ومناقب الكرم أنْفَس الأعْلاق

أما بعد فإن مَنْ نظر في الديانة الاسلامية ، وتأمل في مقاصدها وأسرار تعاليمها ، وجدها ترمي الى غرضٍ واحد تقريبا : هو توفير الكمال النفسي للانسان ، وتيسير أسباب السعادتين ـ الدنيوية والأخروية ـ عليه ، وتمهيد طُرُق التكامل الاجتماعي والسياسي بين يديه. وقد قال الحكماء وعلماء الاجتماع : إن اعتدال الأخلاق في الانسان قد يكون وحده السبب في سعادته ، وتحسين حال اجتماعه : فالانسان بأخلاقه الفاضلة ، وآدابه الرفيعة ، يمكنه أن يعيش في هذه الحياة الدنيا مطمئنّاً ، هادىء النفس ، حَسَن التصرف في الأمور . فيكون سعيداً ، مهما نقَصَه من مطالب الحياة الاخرى : كالمال والنَشَب ، والبنين والرُتب . واذا ساءت أخلاقه ، وارتكست طباعه ، عاش تعِسا ، قلق النفس ، منغص العيش ، مهما أوتي من الحطام ، ورُزِق من مظاهر الجاه ورفعة المقام . وما قاله الفلاسفة والحكماء قرّره الاسلام في أول ماقرّر من تعاليمه السامية ، وأصوله العامة . ويكفي شاهداً على ذلك الحديث الذي خرّجه البخاري في كتاب الآداب والبيهقي في الشُعَب وهو قوله صلى الله عليه وسلم « إنما بُعثتُ

لأتمّمَ مكارمَ الأخلاق » فقد جعل مكارمَ الأخلاق ، ومحاسن الخصال ، الغاية من بعثته الشريفة . وقد أقسم تعالى في كتابه على أن لاسعادة الاّ بحسن الأخلاق مذ قال : « والعصرِ إنّ الانسانَ لفي خُسْر : إلاّ الذينَ آمنوا وعملوا الصالحاتِ ، وتواصَوْا بالحقّ ، وتواصَوْا بالصّبْر » أقسم تعالى على أن كل فرد من أفراد البشر في خسار وضلال . ثم استثنى منهم من اتصف بهذه الأخلاق العالية : (١) الايمان والثقة به تعالى ، (٢) العمل الصالح ، (٣) التعاون على نُصرة الحق ، (٤) التعاون على الاستمساك بعروة الصبر . ولعمري إن من اتّصف بمثل هذه الأخلاق الفاضلة كان جديراً بالسعادة والهناء . حقيقاً بأن لا يكون ذا خسارٍ وشقاء

وهنا أمر يحسن التفطّن له : ذلك ان هذه السورة على قِصَرها تضمّنت أربعة أمور هي أمّهات الأخلاق الفاضلة . فإذا لم يكن المراد من (الأعمال الصالحة) الا ممارسة الطاعات والعبادات البدنية كانت هذه الطاعات بمثابة رُبع الدين أو ربع الوسائل المؤدّية الى السعادة . وتكون البقية وهي (الايمان) و (الحق) و (الصبر) ثلاثة الأرباع الأخرى.

ومن مواضع العجب أن المكتبة الاسلامية ـ على وفرة ماحوته من الكتب والأسفار المؤلفة في الفنون المختلفة ـ لم يكن فيها من المؤلفات المترجمة للأخلاق ، الحاضة على الآداب ، المرغّبة في الفضائل ، بمقدار الربع فضلاً عن أن يكون بمقدار الثلاثة الأرباع باعتبار النسبة الملاحظة في السورة المذكورة . واذا تساءلنا عن كُتُب الأخلاق المتداولة بيننا اليوم لم نكد نعدّ منها سوى كتاب (تهذيب الأخلاق) لابن مسكويه . و (أدب الدنيا والدين) للماوردي و (الجزء الرابع) من احياء الإمام الغزالي . وليس لك أن تحتجّ عليّ بكتب السادة الصوفية التي أناروا فيها السبيل الى أعماق قلب الانسان ومطامير نفسه فعرفوا أسرارها وبلوا

أخبارها لأني أقول : إن هذه الكتب إنما ألّفت بلسان اصطلاحي لا يفهمه إلا طبقة خاصّة من الأمة وهم السادة الصوفية رضي الله عنهم . بل ان الكتب الثلاثة التي ذكرناها هي نفسها لا يكاد يفهمها أو يستفيد منها الا افراد قلائل أيضا . وكتاب (ابن مسكويه) احتذى فيه مثال الحكماء والفلاسفة وسلك طرائقهم في البيان والشرح . وما لنا ولما قاله أولئك الحكماء الأقدمون ، وهذا قرءاننا ، وحديث نبينا صلى الله عليه وسلم تضمنا من روائع الحكم وجوامع الكلم في الفضائل والآداب ، والحثّ على مكارم الأخلاق ما يبذّ القائلين ، ويفي بحاجة المحتاجين . وكل مانريد اليوم كتبٌ أخلاقية يستعين بها المعلّمون والآباء وجميع المتصدّين لإرشاد العامة ، ولتربية الطلاب والناشئين . فان الكتب التي أُلّفت لهذا الغرض لم نكد نراها : فهي إما قديمة محبوءة في مكاتب مصر والاستانة وعواصم أوروبا ، وإما حديثة غير وافية بغرض أمتنا العربية التي شعرت بمبلغ الحاجة الى تهذيب أخلاق ناشئتها على مبدأ ديني قويم مراعىً فيه تغيّرات الأزمان ، وتطوّرات أحوال العمران .

شافهني بهذا كلّه ووصفَ لي مبلغ الحاجة اليه (**السيد ساطع الحصري**) وزير المعارف العامة في حكومة (سورية) سابقا ورغب إليّ أن أضع كتاباً مدرسيا في تهذيب أخلاق الناشئة الاسلامية يجمع بين حاجة المربّي والمعلّم : فيستعينان به على ماهم بصدده من تربية الاحداث ، وتكوين أخلاقهم ، وتقويم طباعهم . وفائدةِ المتعلّم : فيجد فيه كلمات جامعة ، وأقوالاً في الحِكَم والآداب رائعة . تكون عونا له ـ اذا راعاها ـ على تهذيب نفسه وتقوية ملكاته . وأنْ أقتصرَ فيه ـ من المنقول والمأثور ـ على اقتباس ما ورد في الكتاب السماوي ، والحديث النبوي . اللهم الا ما جاءَ عَرَضاً من أقوال الحكماء : مما يلتحم معناه

مع معنى الآية والحديث . وأن أفرغ ذلك كله في أُسلوبٍ سهلِ المأخذ قريب التناول . وأُعلّق عليه – من الشرح والتفسير – ماتستدعيه الحاجة ، ويتطلّبه ذهن المطالع

هذا ما أشار به الفاضل المشار اليه عليّ ، ورسم خُطّته بين يديّ . فحمدت فكرته ولَبّيت دعوته . وسلكت في العمل النهجَ الذي أشرَعَهُ ، محتذياً المثالَ الذي رَسَمه ووَضعه . وأنت ترى أنّ مُعْظم الفضل في هذا التأليف إنما يرجع الى حضْرته ، واذا كنتُ أستحقُّ عليه تقريظاً او ثناءً وجب أن يكون من حُصّته .

وقد رأينا أن نقدّم بين أيدي أبواب الكتاب (مقدمة) نأتي فيها على مباحث في القرآن والحديث : توسعُ المطالع بيانا ، وتزيده رسوخا وايمانا . والله نسأل أن يجعل عملنا مقبولاً لديه ، كما يجعل رَغبَنا مصروفا اليه ، واتكالنا مقصوراً عليه